أهم واجباتنا
فى سنوات الزواج الأولى

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

لاشك أن سنوات الزواج الأولى هى أدق فترة تستحق منا أن نبذل فيها أقصى ما يمكننا من عناية واهتمام لتكوين حياتنا على النحو الذى نريده ونتمناه ...

ومما لا ريب فيه أن لكل منا حياة تختلف عن حياة الآخر ، من حيث الطباع والعادات ، وطريقة التفكير . ولذلك لا يجب علينا أن نعلل النفس عند الزواج ، بأن كلا منا سيجد فى شريك حياته مثله الأعلى الذى ينشـده فى اليقظة والأحلام ، بل ان يعتقد اعتقادا جازما بأنه مقبل على اخراج صورته المثالية إلى عالم الحقيقة كما كان يصورها فى عالم الخيال ، فيتأهب لكى يكون مثالا ماهرا ، يضع فكرته السامية فى التمثال الحى الذى سوف يعيش معه ويكيفه على النحو الذى يحب ويتمنى .

فاذا لم ينجح فى تركيز أفكاره واتقان صورته فى هذا التمثال قلبـا وقالبا خلال السنوات الأولى من زواجه ، فليتأكد من أنه قد فشل فشلا تاما فى أداء مهمته حيث لا يمكنه بعد ذلك أن يتناولها بأى تهذيب أو إصلاح .

ولذلك فإن من واجباتنا أن نفكر فى حقيقة تلك الخطة التى نعمل بها حتى نسمو برابطتنا المقدسة إلى حد الكمال .

ولنعد إلى البداية فنقول : أن لكل منا فترة تمر به فى مقتبل شبابه يتخيل معها أشياء تتأصل فى نفسه تبعـا لبيئته وثقافته وطموحه ، ويتمنى — ويكاد التمنى يذهب به بعيـدا — أن

تحقق تلك الخيالات التي رسمها له النطاق الضيق الذى كان يعيش فيه قبل أن تطويه الحياة فى تيارها و يكلفه وسط لجتها . . .

والمرأة فى ذلك بالطبع تستوى مع الرجل بل قد تفوقه فى أكثر الأحيان ، فهى بحكم طبيعتها الأنثوية الهادئة ، خصوصا المراة الشرقية البعيدة عن غمار الناس ومجتمعهم الصاخب تميل إلى حسن الظن بالأشياء وتصوير الناس فى صورة زاهية جميلة .

فهى تنفق السنين فى تصوير رجلها المنشود بريشة الكمال المطلق ، حتى لاتكاد تتسامح ولو فى هفوة بسيطة من هفوات التصوير كى لاتخدش صورتها الفنية الأنيقة ، وتظل تضفى عليها من الصفات الجميلة ألوانا فاتنة ، ومزايا تتضاءل أمامها صفات القديسين والملائكة . وهى بالجملة تصور لنفسها على قدر نفسها تمثالا جميلا تقدسه ، ومثلا أعلى تعيش له . وغالبا ما يشط بها الخيال فتصور بطلها فارسا من فرسان ألف ليلة سيختطفها يوما على حصانه الأشهب الجميل و يطوف بها خلال جنة الفردوس .

ولهذه الخيالات وغيرها من الخطورة أكثر مما لها من الفائدة ، فقد يكون فى الخيال عزاء عن الحقيقة ؛ ولكن فى مثل حالتنا هذه فالخيال خطر وأى خطر . فالحقيقة تصدمنا فى كثير من الأحيان صدمات كثيرا ما يتحطم معها تمثال أحلامنا أو على الأصح تمثال أوهامنا .

فالفتاة عند ما تنتقل إلى منزل الزوجية قد ترى فى بادئ الأمر تحقيقا لخيالها المرسوم بارزا فى الصفحات التى يخطها سحر شهور الزواج الأولى ؛ تلك الشهور التى يجتهد فيها الزوج أن يكون كاملا فى كل أفعاله وأقواله ، و يعمل جاهدا على ستر نواحى الضعف فيه ؛ ولكنه بعد وقت قصير لا يقوى على الاستمرار ، فتنكشف عيوبه ، وتتجلى نقط الضعف فيه ، وعندئذ تصدم الزوجة بتلك الحقيقة فيتحطم أمام عينها تمثالها المعبود ، وتمتلىء سماء أحلامها غيوما وسوادا .

ولما كان الإنسان من بنى البشر المخلوقين من طين ، وليس من نور كالملائكة . فهو معرض للخطأ والصواب على استعداد للكمال والنقصان ، فيجب اذن أن نلتمس له العذر فى نقصانه وأخطائه ، ولكن مع محاولة تقويم اعوجاجه واصلاح هفواته .

ولست ممن يؤمنون بالمستحيلات ، فكما أن الرجل هو الذى يمكنه أن يجعل من امرأته ملاكا و يمكنه أن يخلق منها شيطانا ، فالمرأة تتساوى كذلك أيضا مع الرجل فى تلك المقدرة ولن يستحيل عليها بقليل من المهارة والكياسة أن ترشد زوجها إلى ما تحب ، وتجنبه ما لا تحب .

فاذا حدث واصطدمت فى مستهل حياتها الزوجية بطباع تغاير طباعها ، و بأخلاق قد تتعارض مع أخلاقها ولو إلى حد ما ، فلا يجب عليها أن تتبرم أو تيأس من ذلك التشويه الذى اعترى صورتها مؤقتا ، فى الوقت الذى يمكنها فيه بما أوتيت من رقة المزاج ، وجمال التصوير ، أن تهذب من نموذجها وتضفى عليه من خيالها أزهى الألوان وأحبها إلى خيالها المثالى حتى تخلق من زوجها مثلها الأعلى فى الحياة .

فمثلا الرجل الذى تعود ترك بيته فى المساء ليجتمع بأصدقائه الذين فارقهم فى الصباح عملا بنظامه الذى هيأته له الظروف قبل الزواج ؛ تستطع لزوجة القوية الشخصية أن ترغمه بظرفها ووداعتها على الاستقرار فى بيته والتشوق إلى الساعات التى يقضيها بجانبها .

كذلك اذا رأت زوجها ممن يحبذون فكرة الاختلاط بالأصدقاء ، ذلك الاختلاط الذى استحدثته المدنية الزائفة ، والتى كان من أثرها أن تمكرجو الأسرة بغيوم أصدقاء السوء ، فيمكنها أن تكون هاديا لزوجها تحميه من الانزلاق فى منحدر جلساء السوء ، فتكون له صديقا مخلصا ، ومسامرا ناصحا ، ولتعلم جيدا أن صلتهما المقدسة تعطيها الحق فى الدفاع عن مصالحهما المشتركة التى تجعل منهما نفسا واحدة تجمعهما فائدة واحدة .

وان كان لوجود الأصدقاء فى محيط الأسرة بهجة وسرور فى بعض الأحيان فله أيضا خطورته ونتائجه ، وهذا لما يختلط علينا غالبا من التفرقة بين صديق السوء والصديق الوفى تلك التفرقة التى لا يمكننا أن نلمس حقائقها إلا بعد أن نحترق بنيران التجربة . و إلا بعد أن تترك تلك التجربة فى أعماقنا أثرا يظل مستمرا ما بقينا فى الحياة .

وكلنا يعرف أثر أصدقاء السوء فى هدم الكثير من البيوتات الهانئة المستقرة ، ونعرف ما يسببه الاختلاط الكثير بالناس من أسوأ العقبات ، وكم أتمنى لو أمكن لكل امرأة حازمة أن تعمل ما استطاعت على إيجاد الوسط الذى يعشقه زوجها فى مملكتها الصغيرة ، وبذلك يمكنها أن تبعده عن جلساء السوء فى الخارج وأن تريه من المسرات الحقيقية ما يريه حقيقة تلك المسرات الزائفة التى يخلقها حوله أناس لا هم لهم إلا تحقيق منافعهم الشخصية واختلاس أمواله بطريقة فنية جريئة لا يشعر بها إلا بعد أن تثقله الديون وتفتح أمامه أبواب الخراب .

ولأصدقاء السوء داخل البيوت أكثر مما لهم خارجها فكثيرا ما كان هؤلاء الأدعياء سببا فى فشل الحياة الزوجية السعيدة فى كل بيت هانئ يحاولون به بما عرف عنهم من المخاتلة وحب النفاق ، وكم من قلوب تحطمت و بيوت تهدمت بغير سبب إلا وقيعة أصدقاء السوء وانحطاط أخلاقهم ، تلك الأخلاق التى لا يتورعون معها أحيانا إذا ما دخلوا منزل زوجين لم يزالا فى سنوات الزواج الأولى من أن يتقربوا الى الزوجة الشابة التى لم تستقر فى حياتها

الزوجية بعد ولم تتشبع نفسها الصغيرة بعظم واجباتها ومسئولياتها، ويملأون أفكارها بأقاويلهم الملتوية المستترة تحت ستار من الأدب المصطنع ، وتكون النتيجة أن يستلبوا من الزوج الأمين قلب زوجته كما استلبوا قبل ذلك عمله وأمواله .

وأنى أوجه نظر كل زوج عاقل إلى هذه النقطة المهمة فلا يدعو الى منزله إلا من يثق فى أخلاقهم من كرام الرجال كى يأمن على سعادته من الانهيار وأيضا ألا يكثر من اختلاط زوجته بهم خصوصا فى أول سنوات زواجهم لئلا تتعود على ذلك ويصعب عليه ردعها .

وصديقات السوء يتساوين فى الأخلاق مع إخوتهن الرجال إن لم يمتزن عنهم ، ولذلك فلتعلم كل زوجة أيضا أنه من أهم واجباتها أن تبتعد هى الأخرى عن صديقات السوء من الجارات وغيرهن ، تلك النسوة اللاتى لا هم لهن إلا أن يستنفدن أوقاتها فى ثرثرة لا فائدة منها ، وحديث معاد يكون فى أغلب الأوقات حديثا ممجوجا يملأ عقل الزوجة بالخرافات والأفكار السخيفة التى كثيرا ما تدفعها الى خلق المشاكل العائلية والنظر الى حياتها نظرة سخط وتشاؤم فضلا عما يسببه لها هذا الأمر من اهمالها لشئون المنزل أمام اضطرارها للقيام بواجبات الضيافة لهؤلاء اللاتى لا يخترن لزيارتهن إلا أشد الأوقات حاجة لاشراف سيدة المنزل على منزلها وقضاء ما يحتاج إلى عنايتها من حوائجه .

حتى إذا ما عاد الزوج إلى منزله مكدودا بعد ما لقى فى يومه من عناء الأعمال ، آملا أن يرى فى منزله جنة الأحلام وكعبة الأمل ، اصطدمت عيناه بما تقع عليه من إهمال ينفره من البقاء فيه ويخلق بينه وبين زوجته حاجزا من سوء التفاهم يظل يقوى على طول الزمن .

وقد قرأت قصة إنجليزية عن سيدة كانت رقيقة الحال رزقها الله بزوج ثرى أبدل من بؤسها نعيما وملأ عليها قلب الكثير من السيدات حسدا وبغضا ، فالتففن حولها مبديات لها الود والصداقة ، حتى خدعتها ظواهرهن ، ففتحت لهن بابها يطرقنه فى حضرة زوجها وفى غيابه ، وكثر عددهن وتمادت الزوجة فى دعوتهن حتى ازدحمت بهن الدار ليلا ونهارا ، وما أتين مرة إلا وأخذن فى الضحك والصخب حتى يمتلىء المنزل بضجيجهن وينشغل الخدم وصاحبة الدار بخدمتهن عن أعمالهم المنزلية إلى أن صار المنزل مثلا سيئا للفوضى والاهمال ، فكره الزوج البقاء فيه وصار يرى فى المنتديات على ازدحامها مكانا أهدأ الى نفسه وأقرب الى قلبه من منزل الزوجية ، وزادت تكاليف الحياة أمامه بين طلبات زوجته وحفلات صديقاتها الدائمة وبين تكاليفه خارج الدار ولم ير إلا الطلاق يخلصه من تلك الحالة وكان له ما أراد بعد أن أصرت الزوجة على مسلكها ولم ترتدع ، وما أن عادت الى منزل ذويها المتواضع حتى انفض الجميع عن صحبتها ولم تعد احدى هؤلاء الأفاقات تجود عليها حتى بمجرد السؤال .

ومن هذه القصة وغيرها تتضح لنا فائدة الإقلال من الاختلاط خصوصا فى سنوات الزواج الأولى حيث يكون الزوجان لم يزالا فى حداثة عهدهما بالزواج ولم يستقرا بعد فى حياتهما ولم يعرف كل منهما طباع الآخر وعاداته .

وأرى من المستحسن فى هذا الأمر أن تجعل الأسرة لها يوما مخصصا للزيارة يحضر فيه من شاء من الأهل والأصدقاء و ياحبذا لو كانت مواعيد الزيارة فيما بين الخامسة والثامنة مساء . حيث تكون ربة البيت قد فرغت من الإشراف على شؤون منزلها و يكون فيه الزوج قد أخذ لجسده المتعب وقتا كافيا للراحة من عناء الأعمال .

ولا يقلق زوجين فى مستهل حياتهما الزوجية أكثر من تلك الزيارات المفاجئة التى يقوم بها أصحابهما كالطائرات المنقضة بغير سابق انذار، وأرى من المستحسن فى تلك الحالات أن يعتذر الخدم لهؤلاء السادة بعدم استطاعة أصحاب المنزل استقبالهم حتى لا يلجأوا إلى تلك الطرق الملتوية التى تدل على عدم ميلهم الى النظام فى حياتهم .

ونترك أصدقاء السوء لتتكلم عن مدى تدخل الزوجة المثالية فى شؤون زوجها وكيف يمكنها أن تصلح من أخلاقه وتقوم اعوجاجه حتى يصير مثلها الأعلى .

فالمرأة مسئولة عن زوجها كما هو مسئول عنها ، بل من واجبها أن تمده دائما بالموعظة الحسنة ، والبصيرة الثاقبة ، والرأى الراجح ، ولتثق أنها بتهاونها فى شؤون زوجها قد تحكم على نفسها بالفشل والشقاء .

وليس معنى هذا أن تقيد الزوجة زوجها بقيود حديدية ،وأن تفرض عليه طاعتها كأنه طفل غرير يحتاج الى الردع والتأديب. فان هذا ولا شك سيشعره بانتقاص قدره والحط من كرامته ، وهو رب الأسرة الذى من شأنه أن يبدى النصح لا أن يتلقاه .

هذا الى جانب ما يعتمل فى النفس البشرية دائما من ثورة وتمرد اذا ما شعرت بشبح قيد يحد من حريتها التى لا تعشق فى الحياة سواها والرجل والمرأة فى هذا الأمر سواء . وهما فى ذلك يستويان مع سائر أنواع المخلوقات منذ الخليقة .

فاذا عرف الرجل بأن الزوجة تتداخل فى حريته تداخلا يشعره بالقيود ، كان ذلك سببا مباشرا يجعله يمعن فى غيه ويتمادى فى أهوائه .

ومن طريف ما كتبه كاتب كبير — هارب من الزواج — ذات مرة فى المرأة التى يتمناها زوجته ، أنه يود ألا تشعره بقيود الزواج ، ومسئولياته ، بل أن تشده اليها ، ولكن بخيط دقيق من الحرير لا تدركه عيناه، طويل بحيث لا يقف أمام ارادته .

وهى نصيحة ثمينة لا بأس بها من فنان يتكلم عن مثله الأعلى بين النساء .

وان كان البعض يظنها كلمات خيالية فهى مع ذلك البسيطة فى الواقع لا تستوجب منا عناء كبيرا فى العمل بها للرجل والمرأة على السواء .

فلنفرض أن أحد الزوجين كان أحمق عصبى الطبع أو كسولا متبلد المزاج ، أو متلافا محبا للإسراف . أو ميالا للعربدة ومصادقة خلان السوء أو هذا وذاك من الأشياء الكثيرة التى تجلب سوء التفاهم فى محيط الأسرة ، فلا يجب أن يلجأ الانسان الى المفاضبة والمشاكسة لإرغام الآخر على الاعتدال ، لأنها طريقة شائكة لا فائدة فيها بل يعمد توا الى العلاج النفسانى فهو أفضل الطرق فى إصلاح هذه الأمور .

فاذا كان النقص مثلا فى أخلاق الرجل فلا أسهل على المرأة من أن تلجأ إلى الحيلة واستعمال رقتها الأنثوية فيما تريد أن تستكمله فى أخلاق زوجها من النقائص ، فتلاطفه دائما وتذكره من آن لآخر بحبها العظيم له وكيف أنها تقتدى بأخلاقه العظيمة فى كل شىء لأنه زوجها وصديقها ، وتظل تضرب له على مثل هذه النغمة وتشيد بالصفات التى تحبها على أنها صفاته بلهجة طبيعية بعيدة عن التكلف ، ولئلا يشعر بما فى كلماتها من مبالغة فيعتقد أنها تهزأ به ، يمكنها أن تقول له فى معرض الحديث مثلا بلهجة يجب أن تعتقد هى الأخرى صحتها .

"ولا تعتقد يا عزيزى أن هناك انسانا منزها عن الأخطاء فلكل منا عيوبه ومحاسنه ولا شك أن الأيام نفسها كفيلة بإصلاح نقائص كل انسان خصوصا اذا تزوج وعرف أنه فى المستقبل القريب سيكون له أبناء يرون فيه مثلهم الأعلى فى الحياة" .

فإذا سألها عما ترى فيه من هفوات ادعت بأنها لم تلاحظ ذلك بعد لأنها تحبه ولا ترى فيه إلا رجلا عظيم الأخلاق ، ومن ثم تحاول أن تغير مجرى الحديث .

وتظل بعد ذلك تنتظر بصبر وجلد نتيجة تجاربها النفسية ، وهى تتصبر فى بوتقة الأيام ، ذكى نارها كلما خبت ، وتلهب حرارتها كلما خمدت ، حتى تختمر وتتركز ، وهى فى كل ذلك تاركة زوجها لنفسه ، ينظر اليها بمنظار الحقيقة ، ويسائلها عن محاسنه وصفاته ، وعن نصيب أخلاقه من الكمال والنقصان ، حتى اذا وجد أن مساوىء تطغى على تلك الحقيقة التى تذكرها زوجته الطيبة القلب ، عمد الى التخلى عن وضيع خصاله خشية أن تقف عليها فتتغير نظرتها المحترمة له أو تتأثر بها فتسوء العاقبة . واجتهد فى انماء نواحى الخير فيه حتى يكون فى المستقبل أبا عظيما جديرا بلقب رب الأسرة ورائدها .

والرجل أيضا عليه هذا الواجب نحو زوجته ان كان الأمر معكوسا ، ولنعلم جميعا أنه لا شىء أعظم أثرا فى حل مشكلات الحياة من أخذها بالحكمة والصبر الطويل ما

زينب محمد حسين